اصل الآداب والفضائل

الاعمال التي يعملها الانسان تمتاز عن الافعال التي يفعلها بكونها (اي الاعمال) صادرة عن قصد وروية . فان اشتملت على ما يجب عملهُ وخلت مما يجب تركهُ فهي اعمال صالحة والاَّ فطالحة . والاعمال الصالحة والطالحة هي التي يُحاسَب عليها ويُطالَب بها بخلاف الافعال التي تفعلها اعضاؤهُ عن غير قصد ولا روية كهضم معدتهِ للطعام وافراز كبدهِ للصفراء فانهُ لا يُلام عليها ولا يمدَح ولا يقال انها صالحة ولا طالحة . فالاعمال الصالحة نوع من اعمال البشر ولكنها غير منفصلة عن بقية الاعمال فصلاً تامًّا ولا هي مستقلة عن احوال الانسان وتعلقاتهِ المختلفة ولذلك لا يمكن البحث عنها مجردةً بل يجب التوسُّع في درسها مبتدئًا من الحيوانات الدنيا الى الانسان سيد المخلوقات

من انعم نظرهُ في انواع الحيوان رآها تتفاضل في البناء والافعال والاعمال وهي في ذلك سلسلة كلُّ حلقة منها ارقى من التي تحتها حتى تنتهي في الانسان ارقاها . اما الانواع الدنيا فليس في افعالها ما يحق ان يسمَّى عملاً مثال ذلك ان الاميبا وهي من ادنى نوع من الحيوانات تسير في الماء من جهة الى اخرى حتى تصادف شيئًا يصلح لان يكون طعامًا لها فتبتلعهُ وتخرج ما لا تستطيع هضمهُ او تصادف حيوانًا آخر تصلح هي لان تكون طعامًا لهُ فيبتلعها ويغتذي بها . وحركاتها هذه افعال مجردة لا شيء فيها من القصد الاَّ اذا كانت خاضعة لناموس لم يظهرهُ العلم حتى الآن . واذا التفتنا الى حيوانات اخرى من نوع الاميبا ولكنها ارقى منها وجدنا حركاتها اكثر إحكامًا من حركات الاميبا وانسب لبناء نوعها حتى تشبه ان تكون اعمالاً حادثة عن قصد وروية . ومعلوم ان هذه الحيوانات العليا اطول حياةً من الحيوانات الدنيا ولو كانت من نوعها فبين طول الحياة وإحكام الافعال علاقة شديدة تشبه ان تكون سببيَّة . وهذا مطَّرد في كل انواع الحيوان لان افعال الحيوانات العليا من كل نوع اكثر احكامًا واشد مناسبة للاحوال التي هي فيها من افعال الحيوانات الدنيا من ذلك النوع . والمطَّرد فيها ايضًا ان الحيوانات التي افعالها او اعمالها محكمة موافقة للاحوال التي هي فيها تكون اطول حياةً من غيرها مما هو من نوعها فتبلغ بمعدَّل عمر ذلك النوع وتجاوزهُ

اذا التفتنا الى الطوائف الدنيا من البشر التي لم تزل في حال التوحش رأينا ان الاعمال التي تعملها لمعيشتها وحمايتها ناقصة وغير محكمة فهي في خطر دائم من الموت جوعًا او بردًا او قتلاً

وعلى ذكر الاولاد نذكر اعتراضاً يوردهُ البعض وهو ان الجهلاء الذين لا يعتنون باولادهم يكون اولادهم غالباً اكثر من اولاد الفضلاء الذين يعتنون بهم اشد العناية ولكن هذا الاعتراض منقوض كما يظهر مما يلي. لنفرض ان زيداً تزوّج بهند وهما صغيران عديما الاختبار والدربة فولدا اولاداً كثيرين. فيربّ اولادهم قلة الاعتناء ويربون في الجهالة وتسلط عليهم الامراض فيموت بعضهم قبل ان يبلغوا اشدهم. ولنفرض ان عمراً تزوّج بزينب بعد ان بلغا اشدهما من القوة الجسدية والعقلية وجمعا من العلم والاختبار ما يكفل لهما الراحة في المعيشة والمقدرة على تربية الاولاد وتهذيبهم ولم يولد لهما الاّ اولاد قليلون فيكون اولاد زيد اميل الى المرض والموت الباكر وعدم إخلاف النسل من اولاد عمرو ولا يمضي زمان طويل حتى يصير نسل عمرو اكثر عدداً واشد قوةً من نسل زيد. وهذا الحكم غالبي ايضاً كغيره من الاحكام. فالاعتناء بالنسل متفاوت ايضاً وبالغ اشدهُ عند ارقى طوائف البشر

ويتحصل مما تقدم ان "كل ابن انثى في جهاد على الارض" وهذا الجهاد ضروري لحفظ الفرد والنوع ولكنهُ متبادل فلا يربح زيد ديناراً حتى يخسرهُ عمرٌو هذا فضلاً عن انهُ (اي الجهاد) يعرّض صاحبهُ للاخطار لانهُ نوع من المغالبة فالجهاد الذي لا داعي لهُ يلقي صاحبهُ في مخاطر لا داعي لها ولذلك فالعمل الانفع للانسان هو الذي يفيدهُ ويفيد نساءهُ ولا يتعرض للاضرار بغيره. هب ان احد الضواري اقتصد في فتكهِ بالحيوانات التي يغتذي بلحومها فلم يقتل الاّ ما اضطرّهُ الجوع الى قتلهِ ولم يذّر في فضلات لحمهِ بل حفظها الى حين الحاجة فالارجح انهُ يحيا اكثر من الضواري التي من نوعهِ اذا كانت لا تقتصد في فتكها بالحيوانات ولا في لحومها بعد افتراسها. واذا حدث نزاع بين افراد هذه الطائفة وافراد طائفة أخرى على الحيوانات التي تتغذى بها الطائفتان فلا تهتمُّ الطائفة الأخرى بقتل الحيوان المقتصد كما تهتمُّ بقتل بقية افراد طائفتهِ فيتمتع هو وتتمتع الحيوانات التي يتغذى بها. وهذا لا يصدق على الحيوان الاعجم تماماً لكنهُ يصدق على نوع الانسان ويتضح منهُ ان من يعمل لخير نفسهِ ولا يضر بغيرهِ هو اولى بالبقاء واخلاف النسل ممن يضرُّ بغيرهِ وهو يسعى لخير نفسهِ. وقد لا يظهر تأثير ذلك في سنة واحدة ولا في قرن واحد لكنهُ لا بدَّ من ان يظهر على طول الزمان فيفترض اهل التعدي من امام اهل الاحسان. وقد تحول دون ظهورهِ موانع كثيرة فيتأخر زماناً طويلاً او يظهر على عكس المنتظر ولكنهُ لا بدَّ من ان يخضع في الآخر لهذه القاعدة العامة وهي ان الاعمال غير المحكمة او المضرة بالغير تتناقص رويداً رويداً بفقدانها عن الغايات المقصودة أو باضمحلال الافراد المعتمدين عليها. انظر الى عرب البادية ترَ انهم كانوا يفتخرون بالغزو كما تفتخر بافضل المناقب ثم قلَّ ذلك من بين

بسبب من الاسباب التي لا تقدر على دفعها اولا تستعد لمقاومتها لانها لاتناهب لما يجيء به الغد ولا تعتبر بما جاء به الامس . ولذلك يكون معدّل حياة الفرد منها قصيرًا جدًّا ويزيد قصرًا اذا امتزجت بشعوب ارقى منها وتسابقت معها في ميدان الحياة . بخلاف الطوائف العليا التي نالت حظًّا وافرًا من التمدّن فانها تتأهب لطوارق الحدثان وتستعد لكوارث الزمان وتطبّق اعمالها على مقتضى الحال فتقلّ تعرّضها للاخطار و يطول معدّل حياتها كما ثبت بالاختبار . وبين هذين الطرفين طوائف كثيرة متفاوتة في تأهبها وتطبيق اعمالها على مقتضيات الحال بحسب تفاوتها في الحضارة ومعدّل عمر الفرد منها متفاوت ايضًا بحسب ذلك . وهذا الحكم لا يخلو من الشذوذ شأن اكثر الاحكام الطبيعيّة ولكنهُ عامٌّ ولا بدّ من اضمحلال ما شذّ عنهُ مع تمادي الايام

واذا كانت الاعمال آيلة الى تطويل الحياة تغلّبت على الاعمال الآيلة الى تقصير الحياة . وهذا الحكم يطلق على الانسان كما يطلق على غيرهِ من انواع الحيوان ويطلق على الجماعات كما يطلق على الافراد لان الاعمال التي تطيل الحياة يؤمَّل رسوخها وتوارثها وانتشارها اكثر من الاعمال التي تقصّر الحياة فتتغلب الاولى على الثانية ولو بعد زمان طويل . ولقد أحسن من قال " الحق يثبت والصلاح يعمّر " وخلاصة ما تقدم ان اعتناء كل فرد من افراد الحيوان بنفسهِ موجود في كل انواعهِ ولكنهُ على اقلهِ في الانواع الدنيا ويتزايد رويدًا رويدًا حتى يبلغ اشدهُ في نوع الانسان وفي ارقى طوائفهِ

ويأتي بعد الاعتناء بالنفس الاعتناء بالنسل وهذا ايضًا متدرّج في انواع الحيوان وطوائفها وبالغ اشدّهُ في الانسان ارقاها . فان الطوائف الدنيا من الحيوان تتكاثر بالانقسام بلا قصد ولا رويّة والفرد الذي تنقسم منهُ الافراد لا يعتني بها ولا يهتم بامرها على الاطلاق . ويجب ان نتخطّى انواعًا كثيرة من الحيوانات الدنيا قبل ان نصل الى الانواع التي يظهر فيها شيء من الاعتناء بصغارها . ثم ان نتخطّى انواعًا اخرى كثيرة قبل ان نصل الى الحيوانات التي ترأم صغارها وتعتني بها وفي الآخر نصل الى الانسان الذي يهتم بصغارهِ قبل ولادتها ويعتني بها زمانًا طويلًا بعدها . وطوائف الناس متفاوتة في ذلك تفاوتًا عظيمًا فالمتوحشون منهم لا يُفرق اعتناؤهم بصغارهم عن اعتناء بعض الحيوانات العليا بصغارها الاّ من جهة طول مدة الاعتناء بخلاف الراقين اعلى ذرى التمدن فان مهم الاول في الحياة هو تربية صغارهم وتهذيبهم فلا يكفّون عن اختراع الوسائل والتدابير لحفظ اجسادهم وعقولهم وتقويتها وتهذيبها . ولا يخفى ان ذلك يقوي النسل ويزيد احكام الاعمال وهذا هو الارتقاء بعينهِ

المتمدنين منهم حتى تلاشى وعدّ الغازي لصًّا مستحقًّا للقطع او السجن وامثلة ذلك كثيرة جدًّا في كل البلدان

ويتضح مما تقدّم ان ترقي البشر يستدعي إحكام الاعمال حتى يتمكن كل فرد من حفظ حياتهِ وتربية نسلهِ بدون ان يضرّ بغيرهِ . وهذه هي السعادة الحقيقية للانسان في هذه الدنيا وغاية كل السنن الادبية على ما يزعمهُ اصحاب هذا المذهب

وهناك امرٌ آخر جدير بالاعتبار التام وهو ان الانسان الذي بلغ هذه الغاية من إحكام الاعمال لا يكتفي بعدم منع غيرهِ من احكام اعمالهِ بل يساعدهُ على احكامها فيسهل إحكام الاعمال على الاثنين بالتبادل والتعاون ويزيد احكامًا وهذا هو الصلاح الذي تتوخاهُ الشرائع الادبية . وعليهِ فيمكن البحث عن اصل السنن الادبية بحثًا علميًّا وردها الى الاعمال المصلحة بترقي الانسان نفسهِ . ويقولون ان السنن الادبية هي في اعتبار العلم اوسع منها في اعتبار الفلسفة لانها تتناول اعمالاً كثيرة لا تتناولها السنن الادبية الفلسفية . فالذي يأكل طعامًا لا ترضاهُ معدتهُ او يلبس ثيابًا لا تدفئهُ حكمهُ في السنة الادبية العلمية حكم الذي يدمن المسكرات او يرتكب المنكرات ولكننا لم نسمع احدًا من اهل السنن الادبية الفلسفية ينذر المتهمين بالعقاب او الذين يتعرضون للبرد بالعذاب

تقدم ان الغرض من إحكام الاعمال حفظ حياة الفرد والنسل والنوع كلهِ . ولكن ما هي الحياة وهل تستحق ان تحفظ وهل حفظها فضيلة تستحق ان يُسعى لها . ان كثيرين من البشر يدّعون كراهة الحياة ولكنهم اذا رأوا احدًا يكاد يقضي عليهِ بسبب مرض او آفة أخرى حاولوا بكل جهدهم اطالة حياتهِ وهذا دليل قاطع على انهم لا يكرهون الحياة بل يكرهون اتعابها

واذا الشيخ قال اف فما — ملّ الحياة ولكن الضعفَ ملّا

فالذين يحبون الحياة يحبون ما فيها من اللذة والسعادة والذين يكرهونها يكرهون ما فيها من الالم والتعب واشتياق الناس الى حياةٍ اخرى بعد الموت مبني على نوال السعادة فيها فالسعادة في هذه الدار وفي الاخرى هي غاية الانسان وهو اليها ساعٍ بناموس الارتقاء الذي سنّهُ الخالق سبحانهُ واخضع لهُ كل فرد من خلائقهِ

هذا ملخص ما يعتقدهُ بعض العلماء في اصل الآداب والفضائل ولكن الجمهور من ايام سقراط الى الآن يعتقدون ان البشر متطوحون في الفساد ولا يمكن اصلاحهم ما لم يأتهم مصلح من السماء فينير اذهانهم التي اظلمت ويسدّد طرقهم التي اعوجّت